مجلة الرائد

العدد : ٢٣٤ الموافق في ذو الحجة ١٤٢٢ هجري ٣/٢٠٠٢ ميلادي

عنوان المقال : المودة المشرفة والعدالة المطلقة	الكاتب : سها عبد الحميد أحمد

مضى عام الحزن وازداد ثقل مسؤولية الدعوة .

في خضم الأحداث لم ينس رسول اللّه ﷺ أن يرسّم خرائط المودة في بيت النبوة .

كان على يقين أن بذور التربية في الأسر المسلمة هي عماد الأمة .

وبينما صاحبة الفضل سودة بنت زمعة تطوف على أم كلثوم وفاطمة .

أُمِرَ الرسول أن يبني بابنة الصديق القرشية المكية .

عائشة بنت أم رومان الكنانية .

في الرؤية جاء أمر اللّه في خرقة من حرير فإذا بعائشة فيه .

فعرف النبي ﷺ أن هذا أمر من عند اللّه لا بد أن يلبيه .

❧ ❧ ❧

كان قد تقدم لخطبتها جبير بن مطعم بن عدي .

أرسل الرسول خولة لخطبتها فقال الصديق : أو تصلحُ له وهي ابنة أخيه ؟

فرد ﷺ قائلاً : قولي له أنت أخي في الإسلام وابنتك تصلح لي .

وهكذا قضى زواج عائشة على بدعة التآخي الجاهلي .

كانت خديجة فلا بد للدين من مستنبط فقيه .

كانت سودة فلا بد لصقيع المودة من فضل معطاء يحتويه .

وها هي عائشة فلا بد للمصدر الثاني للتشريع من مؤرخ يحميه .

وكما فهمنا معجزة الإسراء فما قال ﷺ سريتُ بل أُسري بي

كذلك نفهم الحكمة الإلهية في تعدده ﷺ فما قال أحببتُ بل حُبِّبَ إلي

على الحصير فراش حشوه ليف ، في حجرة شيدت من سعف النخيل

كان عشُّ الزوجية الزاهد مادة أولية لتدوين التطبيق العملي لمنهج اللّه الوكيل

في بيت تمر عليه الأيام الطويلة لا يوقد فيه نار

كانت عائشة تهتم بالتلقي وتنسج من معالم حبيبها للعالم المنار

ولو قدَّر المغرضون أن العدالة أن لا يؤخذ الحدث منفصلاً عن زمانه

غير مدرك لظروف بيئته .. متجاهلاً خصوصية مكانه

لكفوا عن عبثهم الطويل وطعنهم للسيرة بفارق السن بين محمد ﷺ وعائشة

فلنمو الحياة الأنثوية في الجزيرة العربية خصوصية مميزة

❧ ❧ ❧

البيت النبوي فقد ربته الوفية خديجة بعد ربع قرن من الحياة الزوجية .

والبنت الكبرى توفيت تاركة علياً وإمامة .

وكذلك رقية على إثر مصابها الأليم بفقدانها وحيدها عبد اللّه وهو في السادسة .

أصيبت بالحمى ثم قضت نحبها راضية مرضية .

وأم كلثوم تعاني فقدان الأحباب وتكتم بحزن مفجوع أنين الفرقة .

وترعى فاطمة الصغيرة التي أثر حصار الشِّعب على صحتها وباتت تعاني من ضعف البنية .

أيفكر بالأنوثة الغضة من يحمل إلى مهام النبوة المعاناة العظيمة لمسؤولية الأبوة ؟

❧ ❧ ❧

سلسلة الغزوات والفتوحات دوَّنها لنا الصحابة بامتنان

لكن حجرة الزوجية وخصوصية المعاشرة تحتاج إلى ثوابت وأحكام ولا بد لها من شاهدة عيان

فحتى نقدم للعالم الإسلام الضابط لكل دقائق حياتنا نحتاج إلى دليل وحكم وبرهان

كان لا بد من أنثى حاضرة البديهة تدرك مغزى وجودها من حيث الزمان والمكان

فكانت عائشة التي علمت كل زوجة كيف تكون كفة وفي الوقت نفسه حامل الميزان

وتقدر أن تصنع من سكنها الأسري صندوق العمل وهي تتذوق نكهة الإيمان

ووازنت عائشة بين حقوق الزوج والنهل من العلوم بمنتهى الروعة والإحسان

وهنا تكمن حكمة اللّه في الاختيار كيف لا وهو الحكيم المقدر المنان

فكلما عاصر المُدوِّن الحكيم الأحداث كلما أرَّخ بإتقان

سبع وأربعون عاماً بقيت تُحدِّثُ الأمة عن رسولها راسمة لنا ماهية المسلم الإنسان

وجاءت غزوة بني المصطلق ووقعت على عائشة القرعة .

وهناك تنازع رجلان على البئر فصاح صائح : يا للخزرج !!

وصاح الآخر يا لكنانة !!

وككل منافق ألِف ابن سلول مهمته الإصرار على دعوى الجاهلية .

وسار الجيش والنبي يضرب راحلته يستعجلها باتجاه المدينة .

ولبعض شأنها ذهبت عائشة .

وبعودتها تفقدت عقدها وأخذت تبحث عنه متلهفة .

حتى عثرت عليه وعادت مسرعة .

لم تجد هودجها .. ارتحلوه وهم يحسبون أنها فيه لخفتها

فجلست تنتظرهم عساهم يفتقدونها ويعودون ليحضروها

بعد برهة وصل صفوان فرأى سواداً فعرفَ أنها عائشة

المرأة الشريفة الطاهرة . ماذا يفعل والقوم في الركب راحلون .

ولزوجة نبيهم ظنوا أنهم حاملون

اقترب منها وجعل يقول : إنا لله وإنا إليه لراجعون .

لم تكلمه وصمتت فأناخ لها الراحلة ولحق بالقافلة .

استغل ابن سلول الحادثة .

ولو لم يكن للمنافق أعوان وأتباع لما انتشر حديث الإفك كالصاعقة .

لتفجع هذه المحنة أفئدة المسلمين قاطبة

أخذ صدى قسم ابن سلول يتردد ويعلو في أحياء المدينة

واللّه ما نجت منه وما نجا منها

تأذى رسول اللّه ﷺ فاستشار أصحابه فسأله عمر : من زوجك إياها ؟

فقال ﷺ : اللّه تعالى ! فقال عمر : أتظن أن اللّه دلّس عليك فيها .

وكذلك قالت بريرة جاريتها : والذي بعثك بالحق ما رأيت منها أمراً أغْمصهُ عليها

وفجعت عائشة بالنبأ وتألمت لاختفاء اللطف من مودة حبيبها .

لجأت ككل زوجة عندما يمر بها خطبٌ يوجعها تهرع إلى أبويها .

❧ ❧ ❧

أمتاه : أسمعت ماذا يتحدث الناس ؟! فقالت : هوني عليك بنية ،

هذه سنة تصيب كل محبوبة عند زوجها وضية .

وبكت بدمع صدق يروي لهم كم هي عفيفة نقية .

فتأملها الزوج المجروح ودَوَّنَ في صفحات حياتها قاعدة شرعية

عائشة إن كنت أذنبت فاستغفري يَتُبْ عليك خالق البرية

ويستبرئك اللّه إن كنت بريئة

❧ ❧ ❧

نظرت إلى أبيها : أبت أجب رسول اللّه ﷺ عني

صمت الصديق كالأب النادر الحكيم ، بماذا أجيب يا بنتي ؟ لا أدري .

نظرت إلى أمها مستغيثة : أمي أنتِ إذن أجيبيه عني

ولأن قمة النجاح في التربية أن تتوحد الكلمة ردت قائلة : ما أقول ؟ لا أدري .

فقالت عائشة تصف وقع كلمات زوجها وأبويها .. عندها تقلص دمعي

ونظرت إلى أبيها . أفعلت ذلك يا أبا بكر ؟! فقال : معاذ اللّه

فقالت مشتعلة بالتهمة متأججة : وكيف ترضاه يا أبتاه لي

هل يمكن لأحد أن ينظر الحادثة كما نظرتها عائشة من الاجتماعيين والتربويين

حكمة السماء أن تبلغنا مدرسة الإفك أنه ليس هناك امرأة فوق الاتهامات

وتؤسس عائشة قاعدة الأمان فطهر الآباء يمنع الفاحشة عن البنين والبنات

فالصديق الأب وبنت عمير الأم لم يعلموا ما يقولون

لكنها تلميذة النبوة قالت باحتساب : صبر جميل واللّه المستعان على ما تصفون

ولو فهم هذه العبرة المشوهون والمغرضون

لجعلوا فكر عائشة مادة في معاهد الاستشراق يمتحن فيها المستشرقون

ولحرقوا بعض النسخ لترجمة القرآن كنسخة ردويل [1] الذي تعمد التعتيم على عظمة الإسلام ومكانته بين الأديان

عائشة التي لم يشلها الفقر ولم يبطرها الغنى

صبرت صبراً لا شكوى فيه لغير اللّه الأعلى

ولتواضعها ما كانت تظن أن ينزل في شأنها وحياً يتلى

برأها اللّه من فوق سبع سماوات وضحك الرسول المصطفى

وقال مسروراً : أبشري يا عائشة شهد اللّه لك بالبراءة العظمى

فصرخت أمها فرحة : قومي إلى رسول اللّه يا بنيتي

فقالت : واللّه ما أقوم إليه ولا أحمد إلا اللّه هو الذي نزل براءتي

لم ترضَ أن تحمد سوى اللّه فلقد استعانت به دون واسطة أو وسيلة

وبذلك تكون قد رسمت للمرأة ديمقراطية العبودية والمرجعية

وتلك هي معالم الأنثى التي تؤلها لتربية الأمة الفوقية

بلى .. لم تحمد عائشة إلى من بيده الحلول .

على أنه الزوج المثالي الحبيب الرسول .

---

[1] ردويل ، زعم أن أم المؤمنين عائشة - رضي اللّه عنها - ابتعدت عن النبي يوماً كاملاً قضته في صحبة صفوان خلافاً لكل الروايات التي نُقلت إلينا وسطر ذلك في حاشية سورة النور - نساء حول الرسول -

على أنها كانت بعفتها وطهارتها في جزيرة العرب كالبتول .

على مكره وفتنته التي قضاها عبد اللّه بن أبي سلول

على كون حادثة الإفك حيرت الأفئدة والعقول

كانت درساً بليغاً أغنى تاريخنا الإسلامي

ليحذر المجتمعات من ألسنة تحول أصحابها إلى ماهية الطبول

وخبرتنا أن من كمال القضاء الإسلامي أنْ ليس فيه قضية تغلق ضد مجهول

❧ ❧ ❧

أسس الرسول الزوج دولة الإسلام وبنى أعمدتها كأروع ما يكون البنيان

وعلى قيام عائشة بحق الزوجية دعمها أعظم داعية بالعلم والمعرفة والبيان

بعد حجة الوداع مرض الرسول وشعر بأنه قد آن الأوان

استبطأ عائشة حتى وهو يتوجع كان حريصاً على أن تتساوى الكفتان

توفي بين سحرها ونحرها ودفن في حجرتها التي بكت ومع الأنين من الجدران

لتصف الأرملة العالمة شخص أكمل إنسان

بجملة واحدة .. كان خلقه القرآن

❧ ❧ ❧

عاشت بعده تعلم الرجال والنساء ثمانٍ وأربعين سنة

أهدى علمها للأمة المسلمة ربع الأحكام الشرعية

روت عنه ﷺ ألفين ومائتين وعشرة أحاديث شريفة

تفرد منها الشيخان بمائة وأربع وسبعين من الأحاديث الصحيحة

ورسمت للزوجات المعالم المبنية على الستر والخصوصية

واصفة شرعية المودة وحرمة السكن في بيت الزوجية

أليس هذا كله تأكيداً على أن كل زيجة من زيجاته ﷺ كانت تثبيتاً لقضية إيمانية ؟